المحاضرة رقم7

العلاقات الجزائرية خلال فترة حكم الباي حمودة باشا :1782-1814م

هو ابن علي باي وقد واكب فترة حكم صالح باي بقسنطينة 1771-1792 وقد سار على نهج سياسة ابيه وهي عدم اثارة التوتر والعداء مع حكام الجزائر وتقديم الهدايا والضرائب السنوية في وقتها والاعتراف بسيادة الجزائر والاستجابة لطلباتها بناء على وصية ابيه التي جاء فيها :" **ان موارد تونس مثل رغيف الخبز تقسم على اربعة قطع تأخذ منها واحدة، وتعطي للجزائريين القطع الثلاث الاخرى، وذلك حتى يمكن العيش مع اولئك الاقوام الجزائريين المضطربين المريعين"** . وقد تمثلت تلك الهدايا في : حمولة زيت مقدرة ب250جرة و50جرة سمن و20جرة صابون وهدايا لكبار الدولة الجزائرية من شواشي وسروج مطرزة وشالات وعطور قدرة جميعها ب150ألف جنيه.كما التزم بحسن الضيافة والاستقبال للوفود الجزائرية من مبعوثين او شيوخ قبائل وغيرهم.

وبالرغم من حسن العلاقة والهدوء الا ان حمودة باشا كان لا يطمئن الى ذلك فكان يقوم ببناء التحصينات والقلاع العسكرية وعلى التدريب المستمر للفرق العسكرية حتى لا يؤخذ على حين غرة من حكام الجزائر الذين لا يؤتمن جانبهم في نظره. فكادت حادثة طلب التعويض التي طالب بها باي قسنطينة لقبيلة تونسية مقيمة في اقليم قسنطينة سبق لها وان تعرضت للاضطهاد وانتزاع ممتلكاتها من قبل والد حمود باشا. فقد رفض حمودة باشا طلب التعويض ولكن خوفا من ان تتدهور العلاقات مع الجزائر ويفتح جبهة عداء جديدة وخاصة انه مازال في حرب مع البندقية ففضل عام 1784 دفع التعويضات التي قدرت بحوالي250ألف سكوين (ريال بندقي) وبعد ثالثة سنوات 1787 لاحت مشكلة اخرى اذ اشتكى صالح باي قسنطينة الى داي الجزائر بان حمودة باشا التونسي يشجع ويستقبل على اراضيه عددا كبيرا من سكان قسنطينة الفارين من الاحكام القضائية الجزائرية فكادت هذه المشكلة ان تؤدي الى اندلاع حرب بين الايالتين لولا التعقل الذي ابداه حاكم تونس الذي فضل التفاوض الدبلوماسي وتسديد مبالغ مالية كبيرة لاخماد هذه الفتنة المفتعلة .

استمرت تونس بقيادة حمودة باشا في إعلان الولاء والطاعة لداي الجزائر محمد عثمان باشا الى غاية وفاة هذا الأخير ليخلفه الداي حسن باشا (1791-1798) الذي فضل أيضا استمرار العلاقة الطيبة مع تونس .

لقد كانت تونس في حرب مع الولايات المتحدة الامريكية وكثير ما يقوم البحارة التونسيون بأسر السفن التجارية الامريكية والحاق الضرر والخسائر بها لذا اضطرت الى التفاوض مع ايالة تونس عن طريق وساطة جزائرية ، فاوكلت المهمة الى قنصلها بالجزائر السيد جويل باولو الذي تواصل مع داي الجزائر حول الأمر فوافق حسين باشا وأملى الشروط التي تسير عليها الاتفاقية ثم اتصل داي الجزائر بوكيله بتونس لإقناع باي تونس و التحضير النهائي للاتفاقية. وحول هذا الامر يذكر القنصل الفرنسي السابق بتونس دوفواز :" ان وكيل الجزائر في تونس يستطيع تنفيذ اوامر الدي فيها" وهذا دليل اخر على نفوذ سلطة وكيل الجزائر على الباي التونسي. وقد عقد اتفاق هدنة أولي في8نوفمبر 1796ثم توج باتفاق نهائي في مارس1799م بموجبه دفعت الولايات المتحدة مبلغ 25ألف دولار الى تونس وهذا بفضل الوساطة الجزائرية .

ويمكن ان نستنتج ان العلاقات الجزائرية التونسية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قد طبعت في الغالب بالسلم والتعاون برغم ما انتابها في بعض الاحيان من توتر الذي ما يفتأ ان يزول ويستمر تدفق الضرائب والهدايا على بايات ودايات الجزائر .

العلاقات بين الايالتين مطلع القرن التاسع عشر :

عزم حمودة باشا من التخلص من الهيمنة الجزائرية بكل السبل فوجد في شخص الشريف ابن الأحرش فرصة في ذلك بان استقبله واحسن اكرامه ومستغلا طموحه وشجعاته، فاوعز لو بالثورة على الحكم التركي بالجزائر ووعده بالمساعدة ، وهذا ما اكد عليه الشريف الزهار:"وبلغ خبره لأمير تونس يومئذ حمودة باشا ، فبعث له واستقدمه فعظمه وشكر صنيع، واحسن اليه لكي يؤنسه ، وكانت عند حمودة باشا دسيسة في خاطره على ملوك الجزائر..". ثم وسوس له" ان رجلا مثلك شجاعا يجب ان يذهب الى مملكة الترك بالجزائر وينزعهم من أيديهم ونحن نمدك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك " . فكان يسعى من هذا الأمر هو إضعاف الجزائر وإشغال حكامها عن تونس .

زادت حدة مطالب الجزائريين على باي تونس ومنها ان طالب داي الجزائر من خلال مبعوثه الى حمودة باشا حول تبعية منطقة الجريد الى الجزائر ، فكان رد الباي التونسي على المبعوث : "... لولا انك رسول والرسل لا تقتل لقتلتك، ولكن واليوم ان لم تخرج البلاد لقتلنك".

وهذا يعتبر اول تهديد من باي تونس حمودة باشا ضد الجزائر. ثم كان رده على قضية البقر والمواشي التي بعث بها داي الجزائر لبيعها في السوق التونسية بأسعار معلومة من داي الجزائر مسبقا ، هذا الأمر لم يعجب الباي التونسي واعتبره اهانة فكان رد فعله بان يسمح ببيع البقر الجزائري في السوق دون ان يمنع احد من التجار التونسيين من بيع بقرهم في الوقت نفسه، وهذا ما يؤكد عليه ابن ابي الضياف قائلا:" ان البقر امرنا بيعه على يد عدلين ويجمع من ثمنه كذا وتولى قبضه رسولكم بأمرنا . وان ارسلتم بعده شيئا للبيع فميكن خطابكم في ذلك لوكيلكم، وحاله في ذلك كعامة اهل البلد من غير فرق، وقد كنا نرى ان فعلنا معكم سابقا انما هو ثمرة محب ، وحيث رايتموه واجبا فلا نسلم هذا الوجوب ".

كانت هذه المعاملة او الحادثة سببا كافيا لباي تونس حمودة باشا ان يغير من سلوكه وعلاقته بحكام الجزائر بان امر بقطع جميع انواع الهدايا والعطايا التي كانت تقم الى داي الجزائر واوقف النفقات التي كانت تصرف للجزائريين بتونس (دار الضيافة) ، وأمر برفع الراية التونسية عالية فوق القصبة وعلى الحدود التونسية الجزائرية وأمر بمنع ارسال شحنات للجزائر من زيت الزيتون، بل تجرأ بان قام بضرب بعض الرعايا الجزائريين والتجار بالفلقة .

على اثر هذه السلوكات الاستفزازية من باي تونس ضد الجزائريين امر داي الجزائر احمد خوجة (1805–1807) القوات الجزائرية البرية والبحرية بمهاجمة تونس، واستطاعت القوات البحرية بقيادة الريس حميدو من غنم ثلاثة سفن تونسية ومحاصرة ميناء تونس وحلق الوادي1807، وفي المقابل تمكنت القوات التونسية من محاصرة قسنطينة وتحقيق انتصار على قوات باي قسنطينة في منطقة سطح المنصورة مارس1807، ولكن صول الدعم من مدينة الجزائر وعنابة وتراجع بعض القبائل بدعم الجيش التونسي ونقص المؤونة والذخيرة كان من اسباب هزيمة قوات حمودة باشا. وترتب عن هذه المعركة وخيمة ف الارواح، اكثر من 600 تونسي بين قتيل وجريح وغنم الجزائريون الكثير من العتاد الحربي (مدافع –خيل –ابل). واستنجاد باي تونس بالبرتغاليين من اجل حماية السواحل التونسية من البحرية الجزائرية.

تجددت الحرب مرة ثانية في جويلية 1807 واراد حمودة باشا الانتقام من الهزيمة الأولى والتقى الجيشان في موقع يسمى سلاطة على واد سيراط فكانت الغلبة لصالح القوات التونسية وقتل من الجزائريين حوالي2000جندي واسر اكثر من 800جندي وكمية معتبرة من العتاد .

تدخل السلطان العثماني بين الايالتين يدعوهما الى نبذ الخصومات والتعقل فكانت حادثة التمرد التي قام بها احمد شاوش في قسنطينة دافعا قوايا لداي الجزائر بان ارسل وفدا الى تونس سبتمبر 1807 لعقد الصلح بينهما والذي تحقق في شهر نوفمبر من العام نفسه، وبرغم من هذا الصلح بقية المناوشات قائمة بينهما في عرض البحر .

العلاقة بين الإيالتين بعد وفاة حمودة باشا 1814

وجه داي الجزائر الداي عمر(1815-1817) مرسولا الى الباي محمود يعرض عليه الصلح ولكن لم يتحقق ذلك باصرار التونسي على رفض دفع الضريبة السنوية المعهودة، ولما انتقلت السلطة الى الداي علي خوجة(1817—1818) الذي سعى جاهدا لعقد صلح نهائي مع تونس حيث ارسل وفدا في اكتوبر 1817م مكونا من الحاج يوسف احد اعيان البلاد والعلامة سيدي علي بن النيقرو والباش كاتب الذين تفاوضوا واتفقوا على:

* اذا ما رغب البحارة الجزائريين التزود بالمؤن من الموانئ التونسية يجب ان يسددوا ثمنها.
* عدم تعرض البحارة الجزائريين للمراكب التجارية التونسية في عرض البحر.
* تكون اقامة وكيل الجزائر في ضواحي العاصمة تونس وليس بداخلها.
* التخلي عن سلوكات التطاول في المعاملة والتحلي بالاحترام المتبادل في المخاطبة بين الطرفين.

وبهذا عرفت العلاقات بينهما تطورا ملحوظا نحو السلم والاستقرار ونبذ سياسة العنف والاستفزاز والتطاول. وقد استمرت حسن العلاقة ايضا في عهد الداي حسين(1818-1830) بالرغم مما شابها من توتورات واستفزازات من حين لاخر خاصة من الاعتداءات المتكررة من بعض القبائل التونسية كقبيلة الزغالمة وأولاد بن طالب. وكما يعود بفضل لتدخل السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839) الى عقد صلح نهائي في 20مارس1821م، حيث ذكر ابن ابي الضياف:" فاجتمع بقبطان باشا وعرض عليه النازلة وطال بينهما التفاهم بحضرة مبعوثي الجزائر ايضا ، وأخيرا انفصلت النازلة على ان يصطلح الوجقان ويسقط اداء الزيت للجزائر ويؤدى بدله خمس وستون الف قرش للترسخان السلطانية كما تؤدي تونس الهدايا كل ثلاثة سنوات فتم الامر السلطاني بذلك".

ولما بادرت فرنسا بفرض حصار على الجزائر 1827-1830 لمح حسين باي تونس عن موقفه المحايد من المشكلة وفي الوقت نفسه و في لقائه مع قنصل فرنسا عبر عن ارتياح كبير للحصار والى الحملة ضد الجزائر ثم تجلت من بعض سلوكياته عن التواطؤ الواضح والفاضح

مع فرنسا ضد الجزائر وخاصة لما منع عبور مبعوث السلطان العثماني طاهر باشا عبر الأراضي التونسية إلى الجزائر بغية تسوية المشكلة .

كان يطمح الباي التونسي من موقفه هذا بان تضع الحكومة الفرنسية مقاطعتي قسنطينة ووهران تحت تصرفه ، والحقيقة أن ضباط الحملة الفرنسية ومن خلفهم (كلوزيل) قدموا وعودا كاذبة وذلك في إطار سياسة المراوغة والمخادعة حتى يسهل احتلال الجزائر ويتجنبوا معارضة الباي التونسي لمشروع الاحتلال أو تقديم المساعدة للمقاومة الجزائرية .